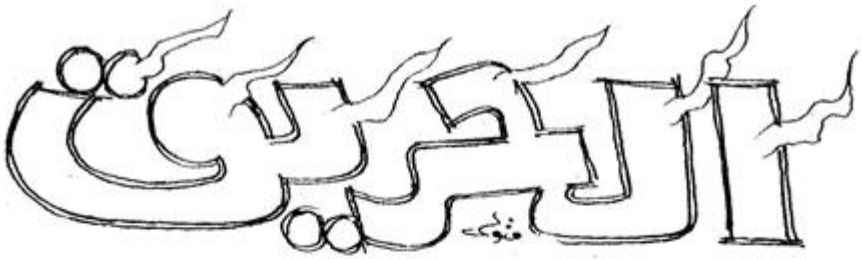

بقلم : فخرى فايد

٠٠ وتوجعت الأبواب الخشبية متفتحة لتندفع من ورائها اجساد نحيلة تجرى ملهوفة تجاه الصوت الحاد المستغيث ، تستعيذ بالله ، وتضرع اليه سبحانه ان يسترها ٠ وتتساءل عن المسكين الذى حاقت به الكارثة ، لكن سرعان ما تتجمع همهماتها فى نداء يحث على الاسراع ٠

وتستجيب السوق فتوسع من انفراجها ، وتلتقى الجموع أمام المنزل المحترق ، ويزدحم الدرب بالعيون المستطلعة لحظات ٠ ثم يلفظها لأعلى فتطفو فوق اسطح الدور تحيط بالنار ولا يتبقى بالدرب سوى عينين تبرقان متلصصتين فى ظل أحد الاركان ترقب اللهب فى تلذذ وشماتة ثم تنحدران لاسفل فتجدا اذرع الرجال ترتفع وتهبط بالعصى ساحقة الشرر المتطاير بينما انفردت أكمام النسوة محتضنة الجرار تفرغ ما بجوفها من مياه حول النار ٠ فتضيق العينان حنقا ،وتستحيل نظراتها مقتا رهيبا تنهشان به الأجساد المتقدمة فى اصرار لتحصر الحريق ٠

وتتماوج نسمةرطبة فتلسع العينين وتجعلهما تطرفان ، وحينما ترتفع جفونهما تكشفان عن بريق كله تمن راحتتلاحق بهالنسمة المدبرة : ما هذا؟ لم تراك واقفا هكذا ؟ ٠٠

وتجزع العينان فتسرعان بالاختفاء ، لا تلبثان ان تطلافىتوجس يزيحه صوت أجش انطلق من قرب : لقد ذهبت ٠٠ وانا عائد لتوى من هناك بعدما وجدت شيخ الحفر لم يزل ينادى على المركز كى يرسلها ٠

حسنا ٠٠ رح ثانية لترى ما تم ، ولتتعجل اتمام الاعمال اذ يبدوأن الريح موشكة على الهبوب ٠

وتتألق العينانبالرجاء حتى لتوشكان أن تنطقا : ياليت ، ويحتج ذو الصوت الأجش : ولم لا تذهب انت ؟ اتراك أعلى منزلة منى ٠ أم ترانى حمار سباخ فلا عمل لى الا المشورة بينما انتم تحاولون اطفاء الحريق ؟ ٠

لوح الرجل الواقف على حافة السطح

بذراعه وصاح فى قنوط : عمك ما رحت ٠٠ اطلع ٠ اهى دارى ؟ ٠

واستدار مبتعدا ، وبقى ذو الصوت الأجش واقفا فى تردد انعكس قلقا فوق صفحة العينين، لكن سرعان ماتحول القلق الى ارتياح لما تحرك ذو الصوت الأجش الى داخل الدار مهمهما ، وهل تراها دارى أنا ؟ ٠

وهبت نسمة ٠٠ فأخرى اعنف من سابقتها ٠ ثم تتابعت النسمات متصلة وبدأت النيران التى كانت أخذة فى الانكماش تنفرد مستعيدة قواها ٠ ويستفسر صوت قلق : ما بال رجال الاطفاء لم يجيئوا يا اخوان ؟

لكن الصوت يضيع وسط فحيح النيران ، والانفجارات المكتومة أحيانا كالآهات، المدوية احيانا أخرى كالصراخ التى تطلقها كيزان الذرة المدفونة تحت حزم الحطب وحباتها تندفع لأعلى متوهجة لتتناثر هشيما اسود فوق الجموع التى ازداد صخبها ٠ وكثرت نداءاتها ٠ وترتسم الراحة فوق العينين وهما تريان الهلع الذى دب وسط صفوف المقاومة فتخبطت متضاربة بعضها ببعض ، وترتفعان مع امتداد أعمدة اللهب التى استطالت تتماوج عملاقة ٠٠ رهيبة ، تكاد تلامس وجه السماء المكفهر بالسحب فتمتلىء العينان رهبة ٠ وتغضان الطرف متلاهيتين بالتحديق فى الزقاق الخالى ٠

ويعود الصوت القلق يلح : يا اخوان يجب أن يجىء رجال الاطفاء ٠

ولا من مجيب فالزقاق خاو والجميع منهمكون فى الصراخ واصدار الاوامر وتتقدم العينان الى الامام قليلا ٠٠ ثم تعودان ثانية للانزواء فى الظل وقد خبا بريقهما وفاضتا بانقباض قاتم ، يا اخوان اننا اعجز من أن نقف أمام هذا الحريق ٠ انه يلتهم كل شىء فالنيران جذورها عميقة وقد تمتد لتحرق البلدة كلها ٠

وتجفل العينان ، ثم تمرقان خارج نطاق الظل تشقان الزقاق هلعة فلا تتوقفان الا وقد ثبتتا فوق شيخ الخفر وقد جلس يتنهد منهارا فى بوق الهاتف فى الطريق ٠٠ انهم فى الطريق ٠٠ اذن سيحضرون ٠٠ اكد عليهم فالحريق كبير انا اقول الحريق لا الفاعل ٠٠ فاعل ماذا ؟ ٠٠ نعم ٠٠ نعم مجهول ٠٠ مجهول ٠

ويعلق شيخ الخفر سماعة الهاتف ويزفر فاردا ظهره فيصطدم بصره بالجسد المقرور وقد اطلت منه نظرات كلها لهفة وتساؤل فيزوم : هـ ٠٠٠م ماذا ترد يا ولد صاحى ؟٠٠ والمحروقة ؟٠٠ انها فى الطريق كان المفروض أن تكون قد وصلت منذ زمن ٠ولكنها ضلت الطريق وذهبت كالعادة الى قرية المراقبة ٠ وكأنه لا تكون حرائق فى الدنيا الا والمراقبة مصدرها ٠ المصيبة انهم يستفسرون فى قلق عن الفاعل لا عن الخسائر ٠

ويضرب شيخ الخفر كفا بكف وهو يعجب للأمر ، مصيبة والله مصيبة ؟ ٠ لكنه سرعان ما يتحول ليعجب من امر الولد الحمار الذى جرى وتركه يحادث نفسه طوال تلك المدة ٠

وقف الصاحى وسط الرجال يزف البشرى مؤكدا ان رجال الاطفاء سيصلون

بعد لحظات ، لكنهم لم يأبهوا به فلقد راحوا يتراجعون فى استسلام امام وهج النيران المستمرة ، ويؤكد الصاحى : وكتاب الله لقد سمعت شيخ الحفر وهو يقول انه سيسرع لينتظرهم عند مدخل البلدة .

ويصرخ صوت آمر : اخلوا الاسطح المجاورة مما عليها من حطب ، هذه الدار قد حكم عليها بالدمار وعلينا ان نؤمن الدور المجاورة من شرها .

وتلفح أنفاس لاهثة وجه الصاحى : فقط لو نعرف الفاعل لمزقناه شر ممزق.

ويتوسل الصاحى ، يا اخوان يجب أن نصمد .. لحظات ويجيئون .

ويعوى صوت غاضب : ماذا نفيد من مجيئهم وصنابير الاطفاء غير صالحة ؟ ويرد الصاحى فى رجاء : سيتصرفوز انه عملهم وحتما سيجدون اكثر من حل .

والاجساد تتراجع .. والصاحى كاد ان يصبح وحيدا فوق السطح الملتهب. فاندفع يختطف عصا من يد تتراجع ، وتقدم ينهال بها فوق النار ، يا رجال يجب أن نصمد ، كل ماعلينا أن نصمد تقدم يا أخ .. ساعد يا زميل هناك .

وهناك انهار رجل . رمقه الصاحى واستدار ، لكنه لم يبرح مخيلته ، بقى يهمس معاتبا : اهكذا تفعلها ياصاحى. امن اجل خلاف بينك وبين عبد الغفار تحرق رزقه ورزق عياله ، ثم هناك ستحرق البلدة كلها ؟! ومن خلال اللهب أطل وجه عبد الغفار حزينا يائسا ، تنطق ملامحه بالضياع ، ومن حوله التف عياله يتعلقون بجلبابه ويصرخون فى رعب . وتشتد ضربات الصاحى فى خبل ، فيهتز بدنه المحموم ، وتتناثر دموعه منسالة فوق وجهه غاسلة مايلطخه من سواد ، سامحنى يا عبد الغفار .. سامحنى . لقد كنت أخطأت فى حقك . لقد كنت دائما احقد عليك وانا اساس الخطأ بالرغم من انك ظهرت بمظهر المخطىء . فلقد تعمدت ان أقسو على بقرتك بالضرب ، فكنت أضربها فى اماكن تجعلها تسقط جنينها ، لانى كنت غيرانا منها ، لذا رحت انتظر الفرصة حتى اطفىء نار غلى ، فما ان شاهدتها تخطو فتنثنى عن الطريق مندفعة الى زرعى حتى كان ما كان . مع انه كثيرا ما تخطىء دوابنا الطريق فنردها اليه دون ان نعاملها بمثل تلك القسوة .. لكن حسدى أعمانى فسامحنى .. سامحنى يا عبد الغفار .

ويود عبد الغفار لو يسامحه ، لكن رجوها كثيرة تبرز من وسط اللهب ، ملتفة حوله ، تكتم فمه محتجةفى غضب لا تغفر له .. لا تغفر له .. احرقه .. احرقه .

ويزداد حقدها ، ويتمدد : احرقه .. احرقه .. احرقه .

حتى ليشمل كل شىء : احرقه .. احرقه .

ويقترب وجه عبد الغفار من الصاحى وقد مسخه غل اسود تنفثه كل خلية من خلاياه فيحيط بالصاحى ثقيلا .. ثقيلا يكاد يخمد انفاسه : احرقه ... احرقه .

وتجذب الصاحى قوة جبارة،فتخرجه من نطاق الحقد فيشهق لاهثا : لا ..

لا ·· دعنى ·· دعنى لن أخف ·· يجب ان يخمد الحريق ·· يجب ·

وراح يجاهد حتى استطاع الافلات من اليد التى جذبته بعيدا عن الجزء الملتهب من السطح ، والذى ما لبث أن انهار فحصر النيران اسفل بين الجدران ·

وافاق الصاحى ليجد نفسه وقد تصلبت ساقاه وانتصب جسده على حافة هاوية قرارها سعير · فاستدار يجرى الى الجانب المطل على الطريق صارخا فى فرح : يجب ان نحصر النيران فى الداخل يا رجال ·

ثم قفز من فوق السطح الى الأرض واذهلت قفزته الجميع فتابعوه بنظراتهم ثم تبعوه باجسادهم ، وقد دب فيهما حماس دافق · وتساءل رجل وهو ينحنى : من هذا الشجاع ؟ ·

فتفحصه جاره ، فلما تبينه · رد فى عصبية ، الا تعرفه ياعبد الغفار ·· انه من ضربت من أجل دفاعه عن زراعته !

وتسلل شعور الى اعماق عبد الغفار بأنه منبوذ ، وزادت حدته لما استرجع صورته وقد وقف منذ لحظات وسط الرجال مستفسرا عن مكان الصاحى ، مقسما انه لو رآه فسيرمى به الى النار ، وخيل لعبد الغفار ان جميع الوجوه قد استدارت من داخل الدار وتطلعت اليه فى شماتة وكراهية ، فامتلأ بالغضب وود لو يصرخ فيهم : ايها المخدوعون انه هو من اشعل الحريق ·

لكنه قام من سقطته ، وانزوى يرتجف فى ركن قبالة داره · وابصرت عيناه من خلال الدخان الصاحى يقود الرجال الذين ضيقوا الخناق على الجمر ، وتمنى لو تستطيل ذراعاه فيقذف به فوق الاتون: ياله من مخادع قذر ·

انتفض رجل · فلوى رأسه وتطلع الى عبد الغفار فى امتعاض · كان صاحب الوجه الذى سأله عمن يكون الشجاع· والتقت عيون اربع فتجهم الوجه وظهر عليه القرف فتكورت منه الشفتان وبصق تجاه عبد الغفار واشاح ·

وازداد غيظ عبد الغفار وصرخت اعماقه فى صاحب الوجه : انك حمار لاتعرف شيئا ، فليس هناك احد غيره اشعل الحريق ·

وخيل الى عبد الغفار ان الوجه قد عاد يلتفت اليه من جديد · وفى هذه المرة لم يتكلم ايضا · وان استنكرت العينان فتحدته : لا ياشيخ ·· ومن اذن الذى بدا بالعدوان ·· اهى بقرتك وقد افلتت من مربطها ، أم انت الذى اطلقتها من مربطها لتتلف زرع الصاحى لغيرتك من نضرته ؟

ولم تتحول العينان عن عبد الغفار ، وظلت تغرس نظراتها المتحدية فى عينيه فلم يملك سوى الاستسلام فأطرق ·

وخفت سرعة الريح ثم تحولت نسمات واهنة ، وانكمش عبد الغفار فى وقفته فالتصق مختفيا فى ظل الحائطين ، بينما شدد الرجال من حملتهم · فقست ضرباتهم ، وزاد تقدمهم حتى لم يعد يبدو للجمر من أثر ، فليس هناك سوى رماد ودخان ·

وتلصصت نظرات عبد الغفار منتقلة بين الاجساد المتلاصقة ، حتى استقرت على الصاحى ففاضت بود واسف : يا ربى لكم ظلمتك يا صاحى ·· فقط

لو تلتفت وتشير الى أن أقبل . اذن لارتميت فوق قـــدميك واعترفت لك بخطئى ، فأنا المتسبب فى الحريق وليس غيرى .

وتمايل الصاحى فكاد جســـده ان ينطرح ، لكنه استند الى الســـلم الذى يتوســـط الدار فيصل بين الداخـــل والسطح ، وفزعت العينـــان ، واسرع عبد الغفار يشق طريقه وسط الجموع، واحتضن الصاحى فحال بينه والسقوط ثم حمله واستدار خارجا .

فى الخارج كانت السماء صافيـــة . والنجوم تتألق ، والسحب قد استحالت تنفا سريعان ماتبـــددت ، بينمـــا تلاشى الدخان المتصاعد من السطح تماما .

الى طوب جدار أسند عبد الغفارجسد الصاحى . وراح ينادى عليه ليفيق من اغمائه ، بعد حين فتح الصاحى عينيـــه فالتقت بعينى عبد الغفار وتحركت شفاه أربع فى تناسق أخرج كلمات واحـــدة تطلب السماح .

ومن بعد بعيد كان ينساب صـــوت أجراس عربات المطافىء فى رنين واهن غطته زغرودة اطلقتها امرأة وتهليل فرح ارتفعت به عقيرة الرجال .